



الحمد لله العزيز ذو القوة المبين، والصلوة والسلام على رسول الله الموعود منه بالنصر والتمكين. وبعد: فإن الكيد لدين الله قديم، منذ أن خلق الله آدم واصطفاه، فشraq إبليس بذلك ومضى هو وأولياؤه في كيدهم وطغيانهم يعمرون، فحصل من العداوة لدين الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ما هو معروف، ولكن مهما فعل أعداء الله فإنهم خاسرون، ومهما بذلوا وأتوا به من صور الكيد فإنهم مدحرون.

ففقد وعد الله - عز وجل - بإتمام نوره، وظهور دينه، ونصر رسوله - صلى الله عليه وسلم -، فقال - تعالى - : {وَاللَّهُ مُتَمِّنُ نُورٍ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وقال - سبحانه - : {وَيَأْلِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. فكان هذا الوعد عند الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يقين لا يخالفه أدنى شك، بل كان هذا الوعد هو سلاحطمأنينة بالفوز والظفر على الأعداء، ورد كيدهم؛ فاطمأنَّ الرسل إلى وعد الله، وزادت ثقتهم بالله - عز وجل - ، وكان ذلك مدرًا لهم، وزادًا في طريق إبلاغ الرسالة. بل والبشرة بالنصر وحسن العاقبة، وظهور دين الله.

يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((لَيَبْلُغُنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَلَا يَتَرَكَ اللَّهُ بَيْتَ مَدِيرٍ وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينُ، بَعْزٌ عَزِيزٌ، أَوْ بَذَلْ ذَلِيلٌ، عَزًّا يَعْزِزُ اللَّهَ بِإِلْسَامِهِ، وَذَلًّا يَذْلِلُ اللَّهَ بِالْكُفْرِ)). [المسنـد عن تمـيم الدـاري: 4/103]

ويقول - صلـى الله عـلـيه وسلم - في حـديث آخر: ((لـا يـبـقـي عـلـى الـأـرـضـ بـيـتـ مـدـرـ، وـلـا وـبـرـ، إـلـا أـدـخـلـهـ اللـهـ إـلـسـامـ، بـعـزـ عـزـيزـ، أـوـ بـذـلـ ذـلـيلـ)) [المـسـنـدـ عـنـ المـقـدـارـ: 6/4]. بل ويـقـسـمـ - صـلـىـ اللهـ عـلـيهـ وـسـلـمـ - عـلـىـ إـتـامـ هـذـاـ الدـينـ فـيـقـوـلـ: ((وـالـلـهـ! لـيـتـمـنـ اللـهـ هـذـاـ الـأـمـرـ حـتـىـ يـسـيرـ الرـاكـبـ مـنـ صـنـعـاءـ إـلـىـ حـضـرـمـوـتـ لـاـ يـخـافـ إـلـاـ اللـهـ، أـوـ الذـئـبـ عـلـىـ غـنـمـهـ)) [الـبـخـارـيـ عـنـ خـيـابـ: 531، وـأـبـوـ دـاـوـدـ (2649)، 3/108، وـأـحـمـدـ: 5/109].

وهـذـ النـصـوـصـ النـبـوـيـةـ كـالـتـفـسـيـرـ لـقـوـلـ اللـهـ - تـعـالـىـ - : {وَيَأْلِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، ثـمـ إـنـهـ تـصـدـيقـ منـ النـبـيـ - صـلـىـ اللهـ عـلـيهـ وـسـلـمـ - بـوـعـدـ اللـهـ - تـعـالـىـ - أـنـ يـتـمـ نـورـهـ وـلـوـ كـرـهـ الـكـافـرـوـنـ. وـأـنـ يـظـهـرـ دـيـنـ كـلـهـ، وـلـوـ كـرـهـ الـمـشـرـكـوـنـ. وـقـدـ كـانـ مـنـ ذـلـكـ مـاـ شـاءـ اللـهـ).

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمة الله -: "فإنما يكون الظهور على سائر الأديان بالحجارة والبرهان، ويُظهر الله أهله القائمين به، بالسيف والستنان. فاما نفس هذا الدين، فهذا الوصف، ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصم، إلا فلجة - غلبه. وصار له الظهور والقهر. وأما المنتسبون إليه، فإنهم إذا قاموا به، واستثاروا بنوره، واهدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهر على أهل الأديان، وإذا ضيغوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه، لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم. ويُعرف هذا من استقراء الأحوال، والنظر في أول المسلمين وأخرهم". [تيسير الكريم الرحمن 5/ 532، 533].

ولعل ضعفاء العقول من الكفار، أو بعض جهله المسلمين تراودهم بعض الشكوك حيال هذا الوعد الإلهي الصادق في مقابل ما يرون اليوم من تفرق كلمة المسلمين، وضعف شوكتهم، مع تسلط أمم الكفر، وازدياد قوتهم الظاهرية، حتى ظن هؤلاء أن كيد الكافرين قد أثمر، وأنه بات بالإمكان اليوم إطفاء نور الله! وهذه شبهة بين عوارها، وظاهر بطلانها.

ولكشف زيف هذا الباطل، أقول مستعيناً بالله:

ليس بداعاً من كيد الكافر الترويج لباطلهم، فهم أهل الكذب والبهتان، منذ أن قال فرعون عن موسى - عليه السلام - إفكاً وتضليلًا: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمْتُمُ السِّحْرَ} يقصد السحرة الذين جمعهم هو، ووعدهم العطايا الثمينة، فلما آمنوا للتو؛ بادر بذاته وبهتانه؛ ليصرف الناس عن قبول الحق، فوصفه بالسحر. وزعم أن موسى هو الذي علم السحرة السحر! هكذا مغالطةً وتبجحاً، والله يقول مفتداً باطلهم: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيَحِقُّ اللَّهُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}. وكذلك قال مشركو قريش لما رأوا انشقاق القمر آية للنبي - صلى الله عليه وسلم -؛ وأشاروا أن يؤمن الناس، ولم يجدوا لأنفسهم حيلة أمام هذه الآية الجلية إلا المكابدة والبهتان والإعراض، كما قال الله - تعالى - عنهم: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ} أي: فهذا شأنهم تجاه كل آية، حتى فيما استقبل من الزمان، فموقعهم دائمًا هو الإعراض والتكذيب، والدعوى الباطلة.

وهذا من جنس الشبهة التي تثيرها أبواب الكفر في زماننا: من نبذ المسلمين بالتخلف، والوحشية، والإرهاب؛ ليصدوا الناس عن سبيل الله، كما فعل أسلافهم من قبل، قاتلهم الله أئمته يؤفكون.

فإنَّ من تأمل مراحل كيد الكافرين الغابرين واللاحقين للإسلام يرى عجباً من العجب! يرى الاستعلاء الطائش، والسعى في الأرض فساداً.

ولو كانت لهم أعين يتصرون بها، أو قلوب يعقلون بها؛ لتبيّن لهم ما هم فيه من الوهم الأجهوف، وأن كيدهم كله فيما مضى من الزمان، وفيما يأتي، لا يعود أن يكون زوبعة غبار، أو دخان، لا يلبث أمام الناظر إلا برهة، فإذا هو لا شيء! فمن كان ينشد الحق منهم فليرجع من قريب. فإن الحياة الدنيا مدتها قصيرة، و نهايتها معلومة. والنندم إذا وقع لا ينفع. وليتأمل المنصف الأمثلة التالية لكيد الكفار لدين الله؛ ثم يستقرئ منها ما ظفر به هؤلاء المغوروون، وما حل بهم من مكر الله وانتقامته الأليمة!

فأول ذلك: ما سبقت الإشارة إلى طرف منه، وهو كيد فرعون ومحاولته إطفاء نور الله الذي أرسل الله به نبيه موسى - عليه السلام -، وسولت له نفسه ذلك، وزينته له الشيطان. مع أنه رأى الهزيمة في أول موقف له أمام الحق، وأصابه الفشل عندما غالب أما الجموع الحاشدة يوم الزينة، حينما دعا موسى - عليه السلام - للتحدي إمعاناً في إبطال الحق، وأراد أن يعطي سوءة العار الذي جلبه على نفسه، وهزيمته أمام جنده عندما آمن السحرة الذين جمعهم هو. فلما لم يجد بدأ من العناد فقال متوعداً لهم، ومهدداً لغيرهم لئلا يؤمنوا: {فَلَأُقْطِعَنَّ أَيْدِيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَئِنَا أَشَدُ

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ، أَرَادَ عُدُوُ اللَّهِ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَرِي مُؤْمِنًا فِي مُمْلَكَتِهِ. وَأَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مُهْتَدِيًّا بِنُورِ اللَّهِ وَدَاعِيًّا إِلَيْهِ. ثُمَّ مَضَى فِي اسْتِكْبَارِهِ، فَقَالَ مَقَالَتِهِ الْفَاجِرَةُ: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، وَقَامَ تَارَةً أُخْرَىٰ: {فَقَالَ أَنَا رَئِسُ الْأَعْمَالِ}.

وَقَدْ قَصَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ صُورًا مِنْ ذَلِكَ الْجَهَدِ الْحَثِيثِ لِإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، قَبْلَ مَبْعَثِ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عِنْدَمَا قُتِلَ فَرْعَوْنُ أَطْفَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَشْيَةً وَجُودَ مُوسَىٰ، فَوْقَعَ مَا حَذَرَ مِنْهُ. بَلْ وُجِدَ ذَلِكَ فِي قَصْرِهِ، وَنَشَأَ مُوسَىٰ أَمَامَ نَاظِرِيهِ. مَحَاطًا بِرَعْيَةِ اللَّهِ وَتَأْيِيدهِ.

وَالسُّؤَالُ الْآنُ: مَا هِي النَّتِيْجَةُ لِهَذَا الْكِيدِ الْمُقْبِتِ لِدِينِ اللَّهِ، هُلْ ظَفَرَ فَرْعَوْنُ بِمَرَادِهِ وَبِغَيْرِهِ؟

وَالجَوابُ عَلَى ذَلِكَ كَانَ أَسْرَعَ مَا كَانَ يَتَوَقَّعُهُ عُدُوُ اللَّهِ، وَمَا هِي إِلَّا فَتْرَةٌ وَجِزْءٌ مِنْ عَبْثِهِ، فَإِذَا هُوَ عَبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، وَخَيْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ، قَصَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي قَوْلِهِ - سَبَّحَهُ - : {فَأَخْذَنَاهُ وَجْنُودَهُ فَنَبَذَنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}. وَفِي مَقْبَلِ ذَلِكَ بَيْنَ - تَعَالَى - أَنَّ الْغَلْبَةَ وَالنَّصْرَ كَانَتْ لِنَبِيِّهِ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ - عَزَّ وَجَلَ - : {وَجَيَّنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرَنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}. وَثَانِيًا: مَوْقِفُ كَفَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - .

لَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلا - عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّهُمْ كَثِيرًا مَا حَاوَلُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ، تَارَةً بِالشُّرُكَ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِمُ الْعَجْلُ، وَتَارَةً بِتَحْرِيفِ التُّورَةِ، وَأُخْرَى بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ !

وَقَبْلَ ذَلِكَ إِدْعَاءِ الْوَلَدِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَ - ، وَوَصْفُهُ - سَبَّحَهُ - بِالْبَخْلِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عَلَوْ كَبِيرًا. يَقُولُ - تَعَالَى - مَبِينًا عَاقِبَةَ ذَلِكَ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرُهُمْ بِعِذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبَطُتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}. وَيَقُولُ - سَبَّحَهُ - عَنْهُمْ أَيْضًا: {فَيَمَا نَقْضُهُمْ مِنَّا قَاهُمْ وَكُفَّرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَاتَلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْءَمْ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَاتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَاتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

ثُمَّ يُذَكَّرُ - تَعَالَى - بَعْضُ قَبَائِهِمُ الْأُخْرَى الَّتِي يَحَادُونَ بِهِ اللَّهُ - تَعَالَى - ، مَعَ بَيَانِ عَاقِبَةِ طَغَيَانِهِمْ وَكُفُرِهِمْ، فَيَقُولُ - سَبَّحَهُ - : {وَقَاتَلَ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةً غُلْتُ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٌ يُنْفَقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِدَنَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رِبَكَ طُغَيَانًا وَكُفَّرًا}، فَعَاقِبَهُمُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الطَّغَيَانِ بِالْعِدَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَالذَّلَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ - عَزَّ وَجَلَ - : {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَادَةَ وَالْبَعْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاهَا اللَّهُ وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادُوا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}.

وَثَالِثًا: مَوْقِفُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ دِينِ اللَّهِ، وَخُصُوصًا قَرِيشَ.

فَإِنَّ مَنْ طَالَعَ كَتَبَ السِّيرَةِ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ يَسْتَوْقِفَهُ ذَلِكَ الْكِيدُ الْمُضْنِي، الَّذِي حَاوَلَ فِيهِ كَفَارُ مَكَةَ النَّيلَ مِنْ هَذَا الدِّينِ، أَوْ وَأَدَهُ فِي مَهْدِهِ.

فَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ صَوَّلَاتٍ وَجُولَاتٍ لِإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ. فَتَارَةً بِتَسْفِيهِ رَأَيِّنَاهُمْ بِهِ وَتَعْذِيبِهِ، وَتَارَةً بِنَبْزِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَبْشَعِ الْأَلْقَابِ: مِنَ الشِّعْرِ وَالسُّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالْجَنُونِ. وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَظِيمَ خُلُقِهِ، إِلَّا إِنَّهُمْ نَحْنُ ذَلِكَ جَانِبًا، وَجَدَوْنَا فِي الْكِيدِ لَهُ بِكُلِّ مَا أَوْتَوْا مِنْ قُوَّةٍ وَحَوْلٍ وَنَفْوذٍ.

فَكُمْ ابْتَدَعُوا لِلتَّنْفِيرِ مِنْ دِينِ اللَّهِ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَكُمْ هَدَوْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَاضْطَهَدُوهُمْ، وَأَذَاقُوهُمْ مِنَ النَّكَالِ. فَلَمَّا يَأْسُوا أَنْ يَنْتَلِوا مِنْ دِينِ اللَّهِ بِغَيْرِهِمْ، تَأْمَرُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لِعَلَمُهُ بِذَلِكَ أَنْ يَشْفُوا صِدُورَهُمْ،

فينطفى نور الله، ذلك السراج الذى بدد ظلمات شركهم وجهلهم، وقضى على سلطانهم.

ولكن أن الله خَيَّب سعيهم، وأنجى نبيه - صلى الله عليه وسلم -، وأخرجه سالماً من بين أظهرهم، وقد أعمى الله أبصارهم؛ كما عميت عن نور الحق بصائرُهم!

فهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وال المسلمين إلى المدينة حيث كانت هناك لِلإسلام دولة ومنعة وأنصار. إلا أن قريشاً لم يكونوا ليَدعُوا نور الله ينتشر في البلاد وبإمكانهم التصدي له. فحاربوا المسلمين في بدر وأحد والأحزاب ومشاهد أخرى. ورغم ذلك فإن دين الله لا يزال في علو وظهور وانتصار، بينما يتربى الكفر وأهله في الذلة والاندثار. حتى دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة مؤيداً منصراً. فخضعت أعناقهم لدين الله، موقنين أن سعيهم الغابر كان ضلاماً. وأن كيدهم لدين الله عاد عليهم وبالأ.

فهذا زعيمهم أبو سفيان يذكر بعد إسلامه - رضي الله عنه - قصة اجتماعه بعظيم الروم هرقل بالشام وقد كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه يدعوه إلى الإسلام. فسأل هرقل أبا سفيان عن شأن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وعما جاء يدعو إليه، فلما أخبره أبو سفيان، قال هرقل: "إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه؛ لتجسمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه". فلما سمع أبو سفيان ذلك من هرقل؛ قال: "ما زلت مويناً أنه سيظهر، حتى أدخل الله علي الإسلام". [البخاري عن ابن عباس (7) / 17].

فهذه مقالة ملك الروم وزعيم النصرانية آنذاك. وفيها الاعتراف بظهور هذا الدين وانتصاره!

وذلك مما دل أبا سفيان - رضي الله عنه - على تلك الحقيقة التي طالما حاول إخفاءها عن نفسه، وعن الناس؛ حمية للكفر، وانتصاراً للباطل.

هذا؛ ولم يقتصر انتشار الإسلام على جزيرة العرب فحسب، بل شمل بلاد فارس والشام، حتى ملك المسلمين موضع قدمي هرقل من بلاد الشام كما توقع. وعمَّ نور الإيمان أكثر أرجاء الأرض عمراً آنذاك، حتى وصل إلى الصين شرقاً، وفرنسا غرباً.

رابعاً: موقف أوروبا النصرانية متمثلاً في مراحلتين: كيد الروم بزعامة هرقل، ومن بعده من ملوك الروم. ثم الحملات الصليبية ضد الإسلام طيلة قرنين من الزمان.

فأما الأولى: فقد أعلنت الروم هزيمتها على لسان زعيمها هرقل في مقالته السابقة. إلا إنه آثر ملكه وسلطان الروم على الخصوص لدين الله؛ فسلبه الله ملك الشام وأطراف بلاد الروم، وهزم جنده في أجنادين واليرموك، وفي غيرهما من المشاهد، وظهر دين الله وهو كارهون!

وأما الثانية: فقد تداعى ملوك أوروبا وباليotasها إلى محاربة الإسلام كرة أخرى عندما رأوا الفرصة مهيأة لهم، فانطلقت الجيوش الجرارة من أوروبا في هجمات وحشية، وحروب مستمرة، فكم سفك فيها من دماء المسلمين وخرّب من بيوthem؛! واقتطعت أجزاء منها من الشام وغيرها، وكان أهمها القدس، التي ظلت تحت حكم الصليبيين قرابة تسعين عاماً. وقد عطل المسجد الأقصى من التوحيد، وقرعت في جنباته نواقيس الشرك، ورفعت في أرجائه الصليب!

يبدأ أن الأمر لم يدم طويلاً ولله الحمد؛ فلقد هيأ الله لدينه رجالاً صدقوا الله؛ فصدقهم الله وعده، منهم: نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، ومن معهم من المؤمنين، فمكثهم الله من دحر الصليبيين في عدة مواطن، كان أهمها حطين، التي تطهر المسجد الأقصى على إثرها من رجس الصليبيين.

فهل تحقق للصليبيية الوثنية إطفاء نور الله..؟؟

كلام، ثم كلام. فهاهو ذا دين الله يدق أبواب أوروبا على أيدي السلاطين العثمانيين، الذين فتحوا كثيراً من البلدان الأوروبية الشرقية؛ فجلجل الأذان في نواحيها: الله أكبر، الله أكبر!!

والاليوم وبين الفينة والأخرى تتعق أبواق الكفر قائلة: كيف يدعى المسلمين أن دين الله ظاهر على الأديان كلها، وهماليوم أضعف الأمم شأنًا، وأشدتها تفرقًا، حتى استذلهم أعداؤهم، واحتلوا بعض ديارهم، وانتهوا خيرتها، ودنسوا مقدساتها؟! ومنذ نيف وتسعين عاماً وفلسطين ترثت تحت الاحتلال الصليبي البريطاني، ثم اليهودي.وها هي أفغانستان قد دكتها المدفع والقنابل، والقاذفات الأمريكية الصليبية، وأهلكت الحرش والنسل. ولا تزال قوات حلف الأطلسي "الناتو" تحكم قبضتها عليها. بل وامتد الأمر إلى العراق، فحشدت لها أمريكا كل ما أوتيت من قوة وحلفاء، فدمروها تدميراً، وعاثوا بها فساداً يفوق ما حصل أيام دخول التتار بغداد.

ثم أanax العدو عليكم بكلله، واجترفكم طوفانه...!!

فأين ما تزعمون من النصر، وأمّتكم مهیض جناحها، نازفة دماؤها.. وحالكم يرثي له البعيد قبل القريب؟! وأنتم مع ذلك تدعون العزة والظهور، وليس لديكم سوى الأحلام والحكايات عن ماضٍ تليد، والأمانى بمستقبل زاهر مجید!! ولما فما هو جوابكم عما آلت إليه حالتكم من الذلة والتخلّف والهزيمة؟! وأين ما تزعمون من الظهور على الدين كله؟!

والجواب عن ذلك:

أن يقال: نعم، يعيش المسلمين في هذا الزمان محنّة تسلط الأعداء من جهة، ومحنة الفرقة فيما بينهم من جهة أخرى، وضعف قوتهم العسكرية. ولكن هذا الواقع له حكمته وأسبابه، وهو مع ذلك لا يغير من قضاء الله - تعالى - ووعده بظهور أمره!

فلا يحكم على دين الله بحال المسلمين اليوم، فإن الأمور المتعلقة بأسبابها، وقبل ذلك بمشيئة الله وقدره وحكمته. فإن الله - تعالى - علق النصر للMuslimين بتحقيقهم أسباب ذلك.

ومن أهمها: تقواه الله، وإقامة أركان دينه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله - سبحانه - : {وَيَنْصُرُنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}.

ويقول - تعالى - : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْفَفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}، فهذا الوعد معلق بهذا الشرط: عبادة الله وحده لا يشرك به شيئاً. وقد تحقق ذلك أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان. وإن أصحاب المسلمين اليوم شيء من تسلط الأعداء، وتخلف التمكين عنهم. فراجع إلى تخلف الشروط والأسباب، ثم هو بحكمة الله - تعالى - ، حيث يداول الأيام بين الناس. فإن النصر والتمكين لو استمر لهم مطرداً على مر العصور غير منقطع ولا مخالف؛ لأنّه بذلك كثير من الناس، ورکعوا إلى ذلك، وتخلفوا عما أمرهم الله به. ولینظر الشاهد على ذلك: حين رأى بعض المسلمين في غزوّة حنين كثريهم وقوتهم وثروا من النصر وقال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلة. فما إن لقيهم عدوهم حتى ولّ أكثرهم مدبرين! وذلك حين أعجبتهم كثريهم وقوتهم، ولم يأت الأمر كما أرادوا، قال الله - تعالى - : {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَتُمْ مُدِيرِينَ}، ولما حصل ما قضاه الله وأراده من أمره؛ رد الله الكراة للمؤمنين وأيدهم بنصره فقال - سبحانه - : {إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرُوهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}، وكل هذا في موطن واحد.

فسنة الله ماضية في إتمام أمره، وظهور دينه، دون النظر إلى الأحداث أو الأتباع، وإن اعترضتهم الحوادث والنكبات بين الحين والآخر موافقة لحكمة الله إما بسنة التداول بين الناس، وإما لتمحيص المؤمنين، يقول الله - عز وجل - : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَهُدِمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ

الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}. فهذا من المدافعة بين الحق والباطل لحكمة عظيمة، منها:
الابتلاء والتمحیص للمؤمنین، والمحق للکافرین، وإقامۃ الحجۃ علیہم..

وقد شهد عظيم النصارى هرقل بذلك لما سأله أبا سفيان عن النبي - صلی الله علیه وسلم - فقال: "هل قاتلتمنوه؟ قال: نعم.
قال: فكيف كان قتالكم إيه، قال: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وينال منه. فقال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم
العاقبة" [صحيح البخاري (6) / 16 ، 17].

وهذه شهادة من عدو. والحق ما شهدت به الأعداء..

والقصد أن سنة التداول والابتلاء لا تتعارض مع إكرام الله لأوليائه، ووعده لهم بالنصر والظهور.

ففي يوم أحد لقي المؤمنون من كفار قريش من القتل والجراحة أمراً عظيماً، حتى أصيب النبي - صلی الله علیه وسلم -،
وأندمي وجهه الشريف - صلی الله علیه وسلم -؛ فاستغرب الصحابة أن يحدث لهم ذلك فقالوا: "أئن هذا؟" قال الله - تعالى
-: {قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ}، وذلك حين نزل بعض الرماة مخالفين أمر الرسول - صلی الله علیه وسلم -؛ فأصاب الجميع
ما أصابهم، ولكن: هل انطفأ نور الله؟!

كلا! إنما هي جولة يسيرة أكرم الله فيها من استشهد، وعفا عن أخطأ.

ثم كتب لهم النصر في الخندق بعد الحصار وتلك المحن العظيمة، فإذا نصر الله يتنزل بغير قتال، ويولى الأحزاب الأدباء.
وأتي عقب ذلك الفتح المبين! فأظهر الله نبيه - صلی الله علیه وسلم - على أهل مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.
ومضى نور الله في الأفاق.

ومزق الله ملک الفرس، وقتل ملکهم کسری، ورد قیصر بغيضه، ودفع ملک الصين الجزرية، وانتشر دین الله في أرجاء
الأرض.

ومع ذلك فكم من عدو اعترض دین الله، وأعلن عداوته وحربه، فصال وجال ما شاء الله له، ثم كسره الله ورده خائباً.

ومن أشهر هؤلاء: الروم النصارى الذين لم تزل غاراتهم على بلاد الإسلام منذ أن ظهر دین الله في بلاد الشام، وتواترت
غاراتهم، حتى كان أشهرها ما عرف بالحملات الصليبية التي دامت قرابة القرنين من الزمان، وما ظفروا به من سلب ونهب
فإنه لم يدم لهم ذلك طويلاً، حتى قيض الله جنده المؤمنين بقيادة صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين 583هـ، فأنزل الله
نصره على جنده، وهزم النصارى، وأسرت ملوكيهم.

ثم جاءت غارة التتار من أواسط آسيا فوطئت كثيراً من بلاد الإسلام في الشرق حتى دخلت بغداد عام 658هـ وقتل الخليفة،
وبدمرت بغداد، وكثير من بلاد العراق والشام.

ولما قضى الله أمره؛ كسرهم وقتل قائدهم في عين جالوت 683هـ وردهم بحرثون أذیال الهزيمة.
ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنه لم تمض إلا فترة وجيزة حتى دخلت أمة التتار في دین الإسلام واحتواها بعده، وشملها بنوره
وهدیه وفضله.

وهذه شواهد موثقة لا يستطيع عدو الإسلام إنكارها!

**والاليوم والمسلمون يواجهون أخطاراً شتى، منها: تکالب أمم الکفر الصليبي والوثني علیهم، وتدمیر أجزاء من بلادهم، في
فلسطين وأفغانستان والعراق، ثم المؤامرة على سوريا اليوم..**

ولكن هذا الواقع - رغم مرارته وفضاعة أحداثه - فإن الجولة مع الکفر لم تنته بعد!
 وإن بشائر النصر، والله! لتلوح في الأفق القريب. نصراً للإسلام وأهله، وإعلاءً لكلمة الله وإظهاراً لدينه، وتحقيقاً لوعده.
قال ابن رجب - رحمه الله - : "لَمْ يَزِلَ اللَّهُ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْمُحْنِ، وَلَكِنَّ دِينَهُ قَائِمٌ مَحْفُوظٌ لَا يَزَالُ تَقْوِيمُ
بِهِ أَمَّةٌ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صلی الله علیه وسلم - لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذْلِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى

- : {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [لطائف المعارف ص: 187 ، 188].

ورغم تلك النكبات، وهذه الشدائـد والمحن فإن الإسلام يعلو ولا يعلى، والله غالب على أمره، وتم نوره ولو كره المشركون. وأما في المستقبل: فإن عندنا بحمد الله وعد من الله - عز وجل - يقول فيه: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلَمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}.

وقد تقدم قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((والله ليتمكن الله هذا الأمر..)). فهذا كائن لا ريب فيه، وواقع لا مانع له، فمن ذا الذي يغالب الله - عز وجل - وهو الذي: {يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

وختام: ذلك قول - تعالى - : {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.

المصدر: لجينيات

المصادر: